



لقد انتشر الظلم بين الناس حتى وصل إلى قمته في أيامنا هذه. فلقد كانت حكايات الظلم تحكي عن الأبناء يعانون آباءهم، ودارت الأيام ومرت السنون والقافلة ما زالت تجري وركابها على ظلمهم نياً واقتربت الساعة وامتلأت الأرض جوراً وظلاماً.

حتى بدأنا نسمع بحكايات الظلم تحكي عن الآباء والأمهات يظلمون أغصان شجرة هم جذور رحمتها، والله تعالى يقول: ﴿يُوصِّيْكُمُ اللَّهُ فِي أُولَادِكُم﴾ النساء: 11، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ المؤمنون: 8، عنه - صلى الله عليه وسلم - : {اعدلوا بين أولادكم} رواه البخاري ومسلم، وفي رواية أخرى {اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم}.

فإن كان هذا حالهم وهو يشاهدون أجسام الموتى تحمل إلى القبور كل يوم فكيف يكون حالهم لو لم يكن هناك موت، فسبحان الذي جعل الموت حق.

فإن الإنسان بالضمير يحاسب نفسه ياصاح!!!، فإن مات الضمير في صدره فإنه يبقى أعجاز ثعبان مسمومه، فيما تقربه يلسعك.

لقد ذكر البيهقي من حديث أبي أحمد بن عدي، حدثنا القاسم ابن مهدي، حدثنا يعقوب بن كاسب، حدثنا عبد الله بن معان، عن معمر، عن الزهرى، عن أنس: أن رجلاً كان جالساً مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فجاء بني له، فقبله، وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنته له، فأخذتها فأجلسها إلى جنبه، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : {فما عدلت بينهما...!}.

وقال بعض أهل العلم:

إن الله سبحانه يسأل الوالد عن ولده يوم القيمة قبل أن يسأل الولد عن والده، فإنه كما أن للأب على ابنه حق، فإن للابن على أبيه حق.

وأن رجلاً جاء إلى عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه -، يشكوى سوء معاملة ابنه له، فأمر عمر أن يؤتى بالإبن، فجيء به، قال

له: إن أباك يشكو سوء معاملتك له وقوستوك عليه، فقال له: يا أمير المؤمنين ألا تسائله ماذا فعل بي..؟ قال: ماذا فعل بك..؟ فقال ابنه: لم يحسن اختيار أمي، فاختارها مجوسية، فكنت أعتبر بها، ولم يحسن تسميتي فسماني جعلاً (حشرة تدفع القدر بأنفها) فكان الصبيان يسخرون من اسمي، ولم يحسن تربيتي، فكان يهملني ولا يرافق بي.

فاللتفت عمر بن الخطاب إلى الرجل فقال له: "يا هذا لقد عققته قبل أن يعقك وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك".

ونستنتج من حديث عمر هذا أربع نتائج هامة:

٤١ أولاً: عدم الحكم لأي إنسان بدون سماع حجة الطرف الثاني في أي مسألة حتى ولو كان الشاكى هو الأب على ابنه.

٤٢ ثانياً: إن علاقة الحقوق بين الآباء والأبناء هي علاقة متراقبة متعددة تبدأ وتقدر بسلوك الأب أو الأم نحو الإبن. فكما أن للوالد على ابنه حقاً فإن للإبن على والده حقاً... وهذه الرابطة تقدر بمقاديرها.

٤٣ ثالثاً: إن تربية الإنسان لابنه ليست بالطعام والشراب فقط كما يفهم عامة الناس، فالرزق على الله سبحانه وتعالى، فهذا من واجب الأب إتجاه ابنه فهو السبب الذي أتى به إلى الحياة، فالحيوانات تطعم وتستقي أولادها الصغار ولا تطلب منهم جزاء ولا شكوراً. ولكن هناك مسألة هامة في التربية عند الإنسان تميزه عن باقي الحيوانات، فهي تربية السلوك والأخلاق والآداب وتقويم الإبن إلى ما يرضي الله تعالى، فإن لم يقم بها الأب بتاتاً فعند ذلك تسقط حقوقه إلا إذا أراد الإبن من نفسه أن يقوم بخدمة إنسانية تجاه أباءه ليرضى بها ربه.

٤٤ رابعاً: وهذه هامة جداً، وهي أن عمر لم يشعر الإبن بعقدة الذنب حتى لا يزيد مأساه بعقد تحطمه خلال حياته. لأن يصب عليه جام غضبه أو يقول له: "لو كان أبي حيا لما تصرفت معه بهذا الشكل" .. بل أراح صدر الإبن وطيب خاطره ونفسيته فاعترف له بأن أباءه هو المشكلة وأن تصرفه إتجاه أباءه كان صحيحاً وذلك حتى يغلق على الإبن مأسى الماضي فينساها ليستطيع شق طريقه في الحياة، فالذنب ليس ذنبه بل ذنب أبيه.

وبذلك يكون عمر قد صنع من الإبن رجلاً فعلمته أن ينسى ماضيه ويتعلم من أخطاء أبيه فيتجنبها في تربية أولاده في المستقبل. فلأن عمر الإبن والأب ومن يسمع هذه القصة درساً لا يُنسى في تربية الأولاد. ولو كان حكم عمر معكوساً لأعطي بذلك إشارة خضراء لل المسلمين خلال العصور كي يسيئوا التصرف مع أولادهم كما يشاؤون وبدون قيود وأن الأولاد هم عبيد أرقاء لأبائهم وبدون حقوق.. فيفسد المجتمع.

وسأل رجل الإمام أحمد فقال: إن أبي يأمرني أن أطلق زوجتي، قال: "لا تطلقها"، قال الرجل: أليس عمر أمر ابنه عبد الله أن يطلق امرأته فطلقتها..؟ فقال الإمام أحمد: "حتى يكون أبوك مثل عمر". (أي يتحرى وينطق بالعدل والحق ولا يتبع الهوى ويفادي الظلم في نفسه). وهذه نظرة ثاقبة بعيدة المدى من الإمام أحمد رحمه الله تعالى حتى لا تخرب البيوت وتتشرد الأولاد وتفرق الأحباب، فكان جواب الإمام مباشرة وبدون سؤال أو استفسار: "لا تطلقها".

وهنا يوجد أربع ملاحظات وهي أن الإمام أحمد رضي الله عنه كان جوابه بالنفي رغم:

1. أنه لم يسمع حجة الأب في هذه المسألة لأنها ليس لها أي تأثير على نتيجة الفتوى.

2. لم يطلب من الإبن بأن يأتي له بأبيه ليسمع حجته.

3. لم يسأل الإبن عن السبب الذي دعا أبوه أن يأمره بطلاق زوجته.

4. قال للابن بما معناه: تسمع كلمة أبيك في هذه المسألة الخاصة بك في حالة واحدة إستثنائية فقط وهي: "حتى يكون أبوك مثل عمر".

ومن هنا يكون أبوه مثل عمر، فالنتيجة أنه لا يسمع كلام الأب أو الأم في هذه المسألة الشخصية إطلاقاً مهما كانت حجتهم.

فأمر الطلاق هو من خصوصيات الإبن وهو الذي يقدر بمقاديره حتى لا يتشرد الأطفال ويؤذى المجتمع.

وقدم شاب لينفذ فيه حكم الإعدام، فقيل له مازا تتمنى قبل أن تموت، فقال: أريد أن أودع أمي، فأوقفوه حتى أحضرها والدته، فرأها، وبكي ثم قال لها: يا أمي أريد أن أقبلك وأودعك، فاحتضنها ثم قبل خدها، فأخذوه لينفذوا فيه الحكم، فقال: أريد أن أقبل لسان والدتي ليكون آخر عهدي بها فسمحوا له، فلما وضع فمه على لسانها أطبق أسنانه على لسانها فقطع لسانها، فقيل له: لم فعلت ذلك..؟ فقال: إن هذا اللسان هو السبب في وقوفي هذا الموقف، لينفذ في حكم الإعدام، فقد كنت منذ الصغر أتصرف أمامها تصرفات خطأة ولم توجهني أو تحسن تربيتي حتى تعلمت ارتكاب الجرائم، وصدر علي حكم الإعدام فأحبيت أن أعاقبها قبل موتي، وأردت أن يعتبر الأمهات فلا تشغلهن عاطفتهن عن حسن تربية أبنائهن وتقويمهن.

فليس المقصود بال التربية الطعام والشراب فقط كما يفهم من ذلك عامة الناس، فالذئاب تطعم وتسقي وتحمي وتحن وتعطف على أولادها ولا تظلم ولا تفرق بين أحد منهم، ثم تعلمهم سبل مسالك حياتهم لا تطلب منهم لا جزاء ولا شكورا، سنة الله تعالى في خلقه ﴿سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَقَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ غافر:85، ولم يتجرأ على الخروج عن هذه السنة إلا الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً.

فمن الأمهات من نصبت نفسها إلهاً من دون الله تعالى فوق أولادها والعياذ بالله، فظلمتهم وظلمت نفسها وأساءت إلى ما كرمها الله به على أولادها وجعلتهم كالكرة بين أقدامها تczf بهم كيف تشاء من أجل إتباع هوى في نفسها أو ظلم تريده، فهددتهم بأنها لو ركلتهم بقدمها اليمنى فستدخلهم الجنة ولو ركلتهم بقدمها اليسرى فستدخلهم النار فأشركت بالله دون أن تشعر.

ولو كانت أمة لما تمنت النار لأي ولد من أولادها حتى ولو كان عاقاً أو شقياً، بل لتمنت ودعت له بالهدية والصلاح، فالذئاب تذرف الدموع وتنوح عندما ترى أولادها في ضائقه الموت..!

ومتى أصبحت الأم شبحاً لتعذب إبنها ولتؤزيه جسمياً أو نفسياً وتستمر على ذلك لسنين طويلة وهي تدرى ماتفعل من أجل هوى في نفسها أو لعبه تتسلى بها، فالأبتعد عنها فيه خير ورحمة حتى ترجع إلى رشدها وتتوب إلى رب العباد ورب الجنة والنار.

فالأمور في الإسلام تقدر بمقاديرها، فلا طاعة لخالق في معصية الخالق، ولا ضرر ولا ضرار، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها
﴿إِنَّمَا تُعرضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ الإسراء: 28.

ولو كانت أمّاً بحق لخشيت أن يصيب إبنتها بسبب سوء تصرفاتها الهم والغم والحزن فيمرض، بل على قلوب أقاليلها. ولو أصاب إبنتها أذى جسمي أو نفسي بسبب سوء معاملتها له فهي مسؤولة عنه أمام الله تعالى وستحاسب عليه، فلقد روى الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول - صلى الله عليه وسلم - : {كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...}.

ولو كانت هذه الأم صالحة وربت أبنائها تربية صالحة لما ابتلتها الله بولد عاق أو شقي ألم تسمعوا قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْغَلَامُ فَكَانَ أَبُوهُ مُؤْمِنٌ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقُهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ {80} فَأَرْدَنَا أَنْ يُبْدِلُهُمَا رِبَّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا {81} ﴿الكافر﴾، وقوله تعالى عن يحيى عليه السلام ﴿وَبِرًا بِوَالِدِيهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَارًا عَصِيًّا﴾ مريم:14، وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام ﴿وَبِرًا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَارًا شَقِيًّا﴾ مريم:32،

فحاشى لله أن يظلم الناس ولكن الناس كانوا أنفسهم يظلمون.
فمن ترك ابنه من الصغر ولم يتمنى رؤيته ويهتم به ويعطف عليه فقد ظلمه...
ومن تمنى لابنه الشر أو دعا عليه بأن يصيبه الشر فقد ظلمه...
ومن تمنى له البؤس فقد ظلمه...
ومن وجد ابنه في ضائقة ولم يساعدوه وهو قادر على ذلك فقد ظلمه...
ومن سمع أن ابنه مريضاً أو في مأزق ولم يسأل عنه فقد ظلمه...
ومن أساء إلى إبنه فقد ظلمه...
ومن منعه حقه فقد ظلمه...
ومن لم يعطه ويسفق عليه فقد ظلمه...
ومن لم يكرمه فقد ظلمه...
ومن جعله لعبة بين يديه ليتسلى بإذاعاته فقد آذاه ومن آذى إبنه فقد ظلمه...
ومن تكلم بالكذب على ابنه ليذله أمام الناس فقد ظلمه...
ومن ساعد إبنه على النصب والسرقة والكذب والاحتيال والنفاق سواء بالسکوت أو بالتشجيع فقد ظلمه وظلم نفسه...
ومن لم يؤنب إبنه عندما يسيء للناس أو لأخوه وأقربائه فقد ظلمه...
ومن تكلم بالنمية والغيبة والسخرية بين أولاده فقد ظلمهم وظلم نفسه...
ومن كتم الحق وتكلم بالباطل وشهد بالزور بين أولاده فقد ظلمهم وظلم نفسه...
ومن فرق بين أولاده فقد ظلمهم...
ومن أشعل نار الفتنة بين أولاده فقد ظلمهم وظلم نفسه ظلماً كبيراً...
ومن طلب بعد ذلك كله أن يبره إبنه فقد ظلمه...
مالكم كيف تحكمون..!

فكما تدين تدان وكما تزرع تحصد، ومن يزرع شوكاً لن يحصد عنباً. وهذه حقائق لنفوس مريضة موجودة في المجتمع سمعتها ورأيتها وقرأت عنها ولم يليست نسجاً من الخيال. قصص تشيب سامعواها قبل المشيب وتنخر عظامه قبل الرميم. ومن الصعب على الإنسان أن يتصورها، ولكن الحقيقة أنه لكل قاعدة شواد ولقد تشعب الظلم والشواد في المجتمع. أما سمعتم بألم تحرق رضيعها بسبب بكائه وأخرى تفرق طفليها من أجل إرضاء عشيقتها، ألم يتكلم لنا التاريخ عن وأد البنات..؟ أليس هذا إفتراس لدماء الأبناء..؟ وما الفرق بين الإفتراس الجسمي والإفتراس النفسي..؟ الأول ينتهي بدقائق والثاني يدوم مدى الحياة...

رجاءً لا تظلموا الذئاب فحاشاها أن تفعل ذلك..!. وفي آخر الزمان تقع أجراس الحرب للذئاب.

وقد يقال إنها نفوس أباء جاهلة، ولكن هناك فرق بين الجاهل وبين مريض نفسي ظالم خرج عن غريزته وفطرته التي فطره الله تعالى عليها، وخصوصاً عندما توجه سهام الظلم لولد دون ولد أو لآخر دون آخر أو لإنسان دون آخر. فالجاهل لا يفرق بحسب جامجه بين الناس بسبب جاهله، أما الظالم فإنه يفرق بطعنات ظلمه بين إنسان وأخر لإرضاء شهوة في نفسه المريضة ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلَمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الشورى:42.

ولقد دعا نبي الله نوح على قومه لأنهم كفار، وكان يعلم أن ابنه كافر مثل قومه فأصابته الدعوة.

فعندما أتى الطوفان علم أن ابنه سيهلك مع الغارقين فنادى ربه ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ هود:45.

فأتابه الجواب من الله تعالى بقوة ﴿قَالَ يَا نُوحٌ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ هود:46.

والجواب كان فيه لهجة الزجر، فكيف يدعى على قومه بالهلاك ويعلم أن ابنه من قومه ثم يطلب من الله تعالى النجاية لابنه فقط.

فاستجيبت دعوته في الحالة الأولى أما طلبه في الحالة الثانية فلم يستجب، فخسر ابنه وندم.

فهذا درس ليتبه الإنسان بما يدعي به على ابنه أو حتى على أصدقاء ابنه أو من يعاشرهم. ولقد نهى - صلى الله عليه وسلم - الدعاء على الأولاد بقوله: {لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم} رواه مسلم. ولقد كنت أعرف أبا رؤوفا عطوفا رحيمًا على أولاده أبتهل بولد أتعبه في حياته، في يوماً كنت في بيته ذلك الأب وهو على فراش المرض يعاني من سكرات الموت وبجانبه ابنه يخدمه، فكان يقول لذلك الإبن بنبرات الرحمة والحنان: "يابني لا يمكن أن تصيبك شوكة وأنا على قيد الحياة، ولكن شفاني الله تعالى فسارد لك جميل صنعك هذه بأفضل ما أستطيع عليه".

كلام تقشعر له الأبدان وتذرف له الدموع، فلقد كان الأب يحاول بكلماته أن يضيء الظلم في بيته وهو يغادر آخر نبرات الحياة.

فما كان من الإبن إلا أن هجم على رجل أبيه ليقبلها و قطرات الأسى تنهمر من عينيه وتحبيب البكاء يسمع من أعماق جوفه وهو يقول: "سامحني يا أبي...سامحني يا أبي".

أب لم ينس ابنه وبيته وهو يعاني من سكرات الموت يجعل الله تعالى في قلب ذلك الإبن رحمة اتجاه أبيه ليخدمه حتى آخر أنفاسه. فرحم الله ذلك الأب وغفر له وإلهنه.

لقد رحل ظل العطف والحنان والرحمة عن ذلك البيت مع رحيل ذلك الأب الحنون. لكم انهمروا من عيني عبرات المرارة والأسى كلما ذكرته. مات الكرم بعدهم والعز والجود وشربت على فقدهم كاسات حنظل ومر جودي عليهم عيوني بالبكاء جودي مما تدرى من أي ولد تأتك الرحمة عندما تحتاجها يا إنسان فلن رحيمًا حنونا عطوفاً بأولادك على حسناتهم وعلاتهم وإياك وظلم أي منهم.

ولئن ظلمتهم فإن الصالح منهم سيتركك حتى لا تصيبه سهام ظلمك، ومن لا يتلقى الظلم يظلم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ النحل:118.

ولقد سئل عالماً في أحد دروسه: ماحكم الجلوس مع الأبوين إن كانت مجالسهم مليئة بالسخرية والغيبة والنميمة..؟ فقال: تنصحهم في أن يبتعدا عن ذلك، فإن لم يقلعا عن هذه العادة فاترك مجالسهم إلا من أجل قضاء حاجتهم، فإن كان هناك من يقضى لهم حاجتهم فابتعد عن مجالسهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَازِبُوا بِالْأَلْقَابِ بِسَبِّ الاسمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتَبَّعْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الحجرات:11.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوْمٌ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُمُونَ اللَّهَ مَا أَمْرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ﴾ التحرير:6، وقال - صلى الله عليه وسلم - : {لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى} رواه أبو داود والترمذى والحاكم بسنده صحيح.

فما بالك بأيدٍ تحوك وألسنة تلوكُ ويكون سلوكهم بين بعضهم النفاق والكذب والغيرة والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يتبعونه بمنصب المكائد والسرقة والنصب، وتكون مجالسهم مليئة بالسخرية والاستهانة والإهانة والإنتقاص والتجريع والغيبة والنميمة والهمز واللمز والقذف والتنا باز بالألفاظ بين أولادهم وإخوانهم وأقربائهم لتوقد بها نار الفتن وتقطع صلة ما أمر الله

به أن يوصل، وموائدهم مفروشة بلح من ليس بمجلسهم من الرحم يتلذذون بنهايتها بنهم..؟ فكانوا نذاباً تأكل اللحوم، وتعالياً تمكر بالعقل، ولصوصاً تنتظر الغلة ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأدعام: 68.

وكما بين الشاعر بأن الديار يحن إليها بسبب ساكنها وتكره كذلك بسببه:

وما حب الديار شغفن قلبي *** ولكن حب من سكن الديار

وقال آخر:

واحدر محل السوء لا تنزل به *** وإذا نبا بك منزل فتحول.

وفي سورة يوسف عليه السلام أجد بعض النقاط الحساسة أود أن أطرحها.

وهي أنه عندما شعر الإخوة بحب أبيهم يعقوب لأخيه يوسف عليهما السلام فقد أشعل ذلك نار الحقد والغيرة والحسد في قلوبهم مما أفقد نار العداوة والبغضاء في نفوسهم تجاه أخيهم يوسف فرموه في الجب للتخلص منه للأبد وظنناً منهم بأن قلب أبوهم سيخلوا لهم (وهذه نقطة هامة لينتبه لها الآباء في معاملتهم للأولاد، فالآولاد حساسون لهذه الناحية). وفي نهاية القصة عندما أتى إخوة يوسف لعنه من أجل الكيل فعرفهم ولم يعرّفهم بنفسه ولم يسألهم عن أمه وأبيه بل سكت عن الأمر وترك الأمور تأخذ مجريها، وكذلك لم يهتم بإخوته لأنهم كانوا أشرار معه في صغره، فهم الذين أساووا إليه وقطعوا أرحامهم. فهناك فرق كبير بين من يظلم الراحم فيقطع صلة ما أمر الله به أن يوصل، وبين من يتتجنب ظلم الراحم حتى لا يفعّج مرة أخرى فيهلك..!

وعندما أخذ يوسف أخاه منهم ومن أبيه ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ {78} قَالَ مَعَازَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذُ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَظَالِمُونَ {79}﴾ سورة يوسف.

فأبى يوسف أن يرضخ لطلبهم وذلك بسبب إجرامهم عليه في السابق، رغم علمه بأن أبيه يعقوب عليه السلام شيخ كبير وكان يحبه جداً جماً.

ويوسف عليه السلام كان يتصرف بوعي من الله تعالى وكان يعلم أن أخذ أخيه منهم سوف يسبب أحزان لأبيه ورغم ذلك لم يتراجع عن موقفه اتجاه أخيه..!.

وذلك ليقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً ولبيتلي يعقوب عليه السلام فيما كان يحبه كما ابتلى إبراهيم عليه السلام في إبنه إسماعيل، حتى تكون القلوب خالصة لله. والنتيجة أن ابكيت عيناً الشيخ الكبير يعقوب عليه السلام من الحزن على فقدان ولديه يوسف وأخيه فلقد كان يحبهما كثيراً.

فإنه لم ينس ابنه يوسف رغم غيابه كل هذه السنين الطويلة فهذه هي قلوب الأنبياء عليهم السلام فلقد اصطفاها الله تعالى لأنها خير قلوب البشر ولا تتغير مع مرور الزمن ولا تنقلب رأساً على عقب على أولادها رغم البعد والفارق ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَيَيْضَنْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ {84} قَالُوا تَالَّهِ تَفَنَّا تَذَكَّرُ يُوسُفُ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ {85} قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوْ بَثِي وَحْزُنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ {86} يَا بَنِي اذْهُبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَسِّرُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَسِّرُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يوسف.

ونرى من الآية الأخيرة أن من واجب الأب أن يسأل عن ابنه بغض النظر عن سبب الفراق والظروف التي حالت بينهما ليشعر أولاده بعطفه وحنانه اتجاههم.

فما لا تراه العين يأسى عليه المؤذن. وسئلَتْ أعرابية : أيّ أولادك أحب إليك، فنطقت من خلال غريزتها وقالت: "الصغير حتى

يُكْبَرُ، وَالْغَائِبُ حَتَّى يَرْجِعَ، وَالْمَرِيضُ حَتَّى يَشْفَى". وَمِنْ خَرْجٍ عَنْ غَرِيزَتِهِ فَهُوَ ظَالِمٌ.

وَفِي النَّهَايَةِ عَنْدَمَا رَأَى يُوسُفَ أَنَّ إِخْوَتَهُ حَاولُوا أَنْ يَقْنِعُوهُ بِأَنْ يَتَرَكُوا أَحَدَهُمْ رَهِينَةً عَنْهُ لِيَأْخُذُوا أَخَاهُمُ الْمُحْتَاجُ إِلَيْهِ وَيَرْجِعُوهُ إِلَى أَبِيهِمُ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ خَشْيَةً وَشَفَقَةً عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَصِيبَهُ الْحَزْنُ ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يُوسُفٌ: 78.

وَلَكِنَّ يُوسُفَ أَبَى أَنْ يَرْضَخْ لِطَلَبِهِمْ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ رَجَعُوا إِلَيْهِ يُوسُفَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ بِلَادِهِمْ لِتَطْلُبِ أَخِيهِمْ بِقُلُوبٍ صَافِيَةٍ مَقْهُورَةٍ مَشْفَقَةٍ عَلَى حَالِ أَبِيهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَقَالُوا لَهُ بِإِسْلَامِ الذَّلِيلِ الْمُقْهُورِ الرَّاجِيِّ الْفَاقِدِ الْأَمْلِ ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجَنَّا بِيَضَاعَةً مُزْجَاهِ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يُوسُفٌ: 88.

فَعِنْدَ ذَلِكَ شِعْرُ يُوسُفَ بِصَدْقِ نَوَابِهِمْ وَأَنَّهُ لَا ظُلْمٌ مِنْهُمْ بَعْدَ قَوْلِهِمْ هَذَا، وَأَحَسَّ مِنْهُمُ التَّغْيِيرَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَبْقُوا عَلَى جَهَلِهِمُ السَّابِقِ الَّذِي عَهَدُوهُ عَلَيْهِمْ، فَتَرَاجَعَ عَنْ مَوْقِفِهِ وَعَرَفُوهُمْ بِنَفْسِهِ ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ 89 ﴿قَالُوا أَئْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ 90 يُوسُفٌ. فَاعْتَرَفُوا بِخَطَّئِهِمْ لَهُ بِإِخْلَاصٍ وَاسْتَسْلَمُوا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا فَضَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿قَالُوا تَالَّهِ لَقَدْ ءاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ يُوسُفٌ: 91.

وَالْمَلَاحِظُ مِنَ الْقَصَّةِ أَنَّ عَلَاقَةَ إِخْوَةِ يُوسُفَ مَعَ بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ أَوْ مَعَ النَّاسِ الْآخَرِينَ لَمْ تَكُنْ عَلَاقَةً عَدُوَانِيَّةً، بَلْ كَانَتْ عَلَاقَةً عَدُوَانِيَّةً مَعَ أَخِيهِمْ يُوسُفَ فَقَطُّ، وَمِنْ أَجْلِ سَبَبٍ وَاحِدٍ فَقَطُّ وَهُوَ حُبُّ أَبِيهِمِ الزَّائِدِ لَهُ مَا أَدْخَلَ الْغَيْرَةَ وَالْحَسْدَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ السَّبَبُ مَوْجُودًا فِي الْأَصْلِ لَمَّا تَصَرَّفُوا مَعَ أَخِيهِمْ يُوسُفَ بِهِذَا الشَّكَلِ.

وَفَوْقَ ذَلِكَ كَلَهُ كَانَ مَرِيَّبِهِمْ نَبِيًّا، أَيْ أَنَّ أَبَاهُمْ كَانَ يَذَكُّرُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ فَلَمْ يَكُونُوا مُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا سَارِقِينَ ﴿قَالُوا تَالَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ يُوسُفٌ: 73. الْآنُ لَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّ الْعَلَاقَةَ كَانَتْ عَدُوَانِيَّةً مَعَ كُلِّ فَرِدٍ مِنْ أَفْرَادِ إِخْوَةِ يُوسُفَ اتِّجَاهُ الْفَرَدِ الْأَخْرَى، بِسَبَبِ أَوْ بِدُونِ سَبَبٍ، وَلَا يُوجَدُ رَحْمَةً أَوْ مُوْدَةً فِيمَا بَيْنَهُمْ وَلَيْسَ هُنَّا مِنْ يَقُومُهُمْ وَيَدْافِعُ عَنْ يُوسُفَ، وَكَانُوا مُسْتَمِرِينَ بِجَهَلِهِمْ وَسُوءِ مَعْاملَتِهِمْ وَظُلْمِهِمْ لِأَخِيهِمْ يُوسُفَ..! فَهَلْ كَانَ يُوسُفَ سَيَرْتَاجِعُ عَنْ مَوْقِفِهِ اتِّجَاهِ إِخْوَتِهِ فِي آخِرِ الْقَصَّةِ..؟ سَؤَالٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ التَّفْكِيرِ.

فَهَذَا التَّصَرُّفُ مِنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ حِكْمَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لَنَا وَأَخْبَرَنَا بِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِيُسَمِّنَ أَجْلَ التَّسْلِيِّ بِلِلنَّتْدِيرِهِ وَلِيُكُونَ قَاعِدَةً لَنَا نَتَعَلَّمُ مِنْهَا كَيْفَ نَتَصَرُّفُ فِي مَثَلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ الْحَرْجَةِ فِي الْعَلَاقَاتِ الْأُسْرِيَّةِ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِسَائِلِيَّنَ﴾ يُوسُفٌ: 7.

وَالْسَّؤَالُ الَّذِي يَطْرُحُ نَفْسُهُ:

كَيْفَ يَكُونُ تَصَرُّفُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ لَمْ يَكُنْ أَبُوهُ نَبِيًّا وَكَانَ يَظْلِمُهُ مَعَ ظُلْمٍ إِخْوَتِهِ لَهُ..؟ سَؤَالٌ يَحْتَاجُ لِجَوابٍ؛ فَلَقَدْ سَمِعْنَا بِظُلْمِ الْأَبَاءِ وَالْأَمْهَاتِ لَوْلَدَ دُونَ ولَدٍ يَحْدُثُ فِي زَمَانِنَا هَذَا.

وَلَقَدْ قَالَ طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ فِي مَعْلَقَتِهِ:

وَظُلْمُ ذُويِّ الْقَرْبَى أَشَدُ مَضَايَّةً ** عَلَى الْمَرءِ مِنْ وَقْعِ الْحَسَامِ الْمَهْنَدِ.

وَعِنْدَمَا تَرَى أَوْ تَسْمَعُ إِنْسَانًا يَعْقُلُ وَالْعِيَادَ بِاللَّهِ فَلَا تَظْلِمْهُ بِالْحُكْمِ عَلَيْهِ مَبَاشِرَةً بِلِإِنْظَرْ إِلَى الْمَشَكَّلَةِ مِنْ أَصْلِهَا فَقَدْ تَكُونُ بِسَبَبِ دَعْمِ صَلَاحِ الْأَبْوَيْنِ وَإِسَاعَةِ أَحَدِهِمَا أَوْ كَلاهُمَا فِي تَرْبِيَّةِ أَوْلَادِهِمْ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَى هَذِهِ النَّقْطَةِ بِوَضُوحٍ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغَلَامِيْنِ يَتَيَمَّيْنِ فِي الْمَدِيْنَةِ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشْدَهُمَا

والآية تدل على أن صلاح الآباء يؤدى إلى حفظ الأبناء وصلاحهم. والصلاح مصدره القلب ولا يعلم بالقلوب إلا عالم الغيب الذي لا يغيب عن علمه شيء لا في السماء ولا في الأرض. ولذلك فقد انتبه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لهذه المشكلة فلم يحكم للأب حين شكا له سوء تصرف ابنه حتى أويتى بالإبن وسمع حجته - وهذا من الحق والعدل - وبعد أن سمع ماعند الإبن فلم يوبخه كما يفعل أكثر الناس لو كانوا بذلك الموقف.

لأن الناس تتخذ قرارها من انعكاسات عواطفها وأحساسها اتجاه الأب أو الأم وخصوصا إذا استخدم الآبوين سلاح البكاء والدموع.

ولكن عمر استخدم عقله ووجه كلامه إلى مصدر المشكلة وهي الأب وقال له: "يا هذا لقد عققته قبل أن يعقك وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك".

أي أهملته قبل أن يهملك، وظلمته قبل أن يظلمك، ولم تتحترم حقوقه فلم يحترم حقوقك، ولقد أهنته فلماذا تطلب منه أن يكرمك، فلا تلومن إلا نفسك فهذا ما جنته يداك. وبهذا يكون عمر قد انتبه لمشكلة حقوق الآباء للأبناء منذ 14 قرن، ولقد برأنا الآباء والأمهات من تلك المشكلة في وقتنا الحاضر وحملناها على أكتاف الآباء فظلمناهم بما لم تكسب أيديهم. لقد روى أن معاوية بن أبي سفيان غضب يوما على ابنه يزيد، فأرسل إلى الأحنف بن قيس ليسأله عن رأيه في الآباء، فأتاه الجواب: هم ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة، فإن طلبو فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، فإنهم يمنحونك ودهم ويحبونك ولا تكون عليهم ثقيلا فيملوا حياتك ويتمنوا وفاتك.

وقد علق الشيخ عبد الوهاب مطابع على قول الأحنف بن قيس فقال: وأبوك أيها الشاب إن لم يكن لك أرضا ذليلة ولا سماء ظليلة بل كان شجرة جردا بالنسبة لك لا ظل لها ولا ثمر، فبأي شيء يستحق الحب، ولا أقول البر به، لأن البر به بمعنى حسن المصاحبة إذا احتاج إليك ذات يوم واجب أخلاقي ودينى تؤديه رعاية لربك واحتراما لنفسك أنت وليس لأي شيء آخر.

ولولا حذري من الإطالة لأسهبت بالشرح في هذا الموضوع لأهميته فهو ليس دعوة لعقود الوالدين بل لبناء خلية الأسرة والمجتمع، فوراء كل أمة عظيمة تربية سليمة.

فيما أيها العلماء والداعية لا تعطوا كل انتباهم وتفكيركم لمعالجة نتائج المشكلة، فلا يصلح العطار ما أفسد الدهر، بل الأولى أن تركزوا تفكيركم وانتباهم على معالجة أصل المشكلة وجذورها.

ورحم الله أحمد شوقي حين قال:

رضع الأخلاق من ألبانها *** إن للأخلاق وقعا في الصغر

المصادر: